الكنيسة والتمدن الروماني

بقلم الاب ا.د. اليسوعي

كلٌّ يعلم ان مدينتنا بيروت منذ نصف سنة قد غنيت بمدرستين جديدتين احيتا مفاخرها القديمة في تعليم الفقه اعني مكتب الفقه العثماني ومكتب الحقوق الفرنسوي فما كادا ان يفتحا ابوابهما للطلبة حتى توارد وا اليهما برغبة دلّت على انهما سدّا خللاً كبيراً في اقطارنا

وما لبث بعض أدباء المسلمين ان انشأوا مجلّة شهريّة دعوها مجلّة العلوم الاجتماعيّة صدر منها الى هذا التاريخ ستّة اعداد توفّرت فيها المباحث لبعض الاختصاصيين بينهم نصارى من ذوي الخبرة في الامور الاجتماعيّة لاسيما الحقوق كالافندية انطون بك شحيبر ونعمان بك حبيش وميخائيل عبد البستاني والشيخ اسكندر العازار قرأنا لهم فصولاً حسنة في الجرائم والحضانة ومذاهب الفقه الاربعة واحكام الزيادات والمصارف لا يسعنا الّا الثناء عليها

وهناك فصول أخرى تحتاج الى مزيد ايضاح وتحرير لبعض ما دخلها من المزاعم المبهمة او غير السديدة كمقالة الاشتراكيّة والاشتراكيين (ص ١٣٧) والمقالة الافتتاحيّة « ماذا يُعنى بالعلوم الاجتماعيّة » حيث سند الكاتب علم الاجتماع الى رجلين من الوضعيين والداروينيين اعني « هربرت سبنسر واوكست قومت » وبذلك اعلمنا من اي منهل عكر قد استقى معارفه الاجتماعيّة

على اننا في هذه العجالة لا نتعرّض لتينك المقالتين ونكتفي بانتقاد مقالة أخرى تاريخيّة بقلم « ب.ن » لا نستطيع السكوت عن مضامينها المجحفة بحقوق الكنيسة الكاثوليكيّة. وهي ان المقالة « الفقه الاسلامي والقانون الروماني » افتتحها صاحبها في العدد الثالث (ص ٧١–٧٦) وتابعها في العدد الخامس (١٢٩–١٣٤) واودع تلك الصفحات من الآراء الواهنة بل من الاراجيف الباطلة ما يدلّ على انّه يخوض في مباحث لم يحسن معرفتها. فانّ بحثاً كهذا لا تستقصيه المجلّدات الضخمة فما قولك بالصفحات القليلة التي لم تكد تمسّ الموضوع وتتناوله من بعض مظاهره العامّة

ومما خلطه هناك خلطاً سيئاً ثلاثة مسائل كان يجب التمييز بينها والتدقيق في جواهرها واعراضها واوابدها وشواردها ألا وهي :

اولاً : مقام الكنيسة بإزاء القانون الروماني

وثانياً: موقف الكنيسة بإزاء الشعوب البرابرة

وثالثاً: نسبة التمدن العربي الاسلامي الى التمدن الغربي النصراني

البحث الأول

مقام الكنيسة بإزاء القانون الروماني

اوّل ما ائتلفت الكنيسة مع السلطة المدنيّة الرومانيّة انّما كان في عهد قسطنطين الملك بعد انتصاره على عدوه مكسنطيوس كما روي ذلك سابقاً في المشرق (١٦ [١٩١٣]: ٤٠١-٤١٦) وقد بيّن هناك كاتب المقالة المحقّق انّ قسطنطين منذ تبوّأ اريكة الملك وانقاد الى احكام النصرانيّة حوّر كثيراً من شرائع الرومان ولطّفها بإيعاز ارباب الكنيسة. من ذلك الشرائع التي سنّها محظّراً فيها عن استعباد الرجال الاحرار ومقرّراً ردّ الحرّية لمن استُعبدوا ظلماً وناهياً عن وسم العبيد في جباههم بالحديد المحمى ومانعاً الحكم عليهم بالصلب ومسوّلاً لاصحاب العبيد اطلاق الحرّية لعبيدهم خلافاً للشريعة الرومانيّة الجارية وتشديد ومبطلاً سنّة المجالدة بين العبيد بالسيوف والمبارزات في الميدان تفكيهاً للشعوب

وقد عدّد الكاتب ايضاً هناك (ص ٤١٥) سنناً غيرها وضعها قسطنطين صيانةً لكرامة الزواج وفقاً لتعاليم الانجيل واحكاماً اخرى مشبعة حكمةً ومفعمة بالروح المسيحي. فما ابعد هذا عن قول «ب. ن» (ص ١٢٩) انّ القانون الروماني لم يتكيّف بالدين المسيحي. وقد ساء استشهاده بقول السيد المسيح في لوقا (٦: ٣٢-٣٦) حيث امر المسيح بمحبّة الاعداء والاحسان اليهم اذ لم يفصل بين سُنَن الفضل والكمال الدعوّ اليها المسيحيّون وبين السُنَن الاجتماعيّة التي تجري عليها الدول النصرانيّة في سياسة رعاياها المبنيّة على الحقوق العدليّة

ومن خطإ الكاتب ب. ن انّهُ لم يفرق بين أُولئك الاساقفة العظام المتازين ببراراتهم وعلومهم الذين دافعوا عن الحقوق الراهنة ولاسيما اعلاها قدراً اعني حرّية

الشهير كاثناسيوس وباسيليوس ويوحنا فم الذهب وبين الاساقفة المنتمين الى الشيعة الاريوسيَّة الذين كانوا يضحُّون بالحقوق الدينيَّة لاغراضهم الشخصيَّة مراعاةً لخاطر امبراطرة مستبدّين قصدوا تذليل الكنيسة واستعبادها لسلطتهم المدنيَّة فيلقبون نفوسهم كالقياصرة الوثنيين بالاحبار العظام (Pontifex Maximus). فما ابعد هؤلاء الاساقفة عن روح النصرانيَّة والاستشهادُ بهم لا يُجدي اعداء النصرانيَّة نفعاً

ولعلَّ الكاتب ب.ن يعترض علينا بقوله ان المفهوم بالقانون الروماني انما هو ذاك المجموع الذي يُدعى بالقوانين الجديدة والرسوم التي اصلحها يوستنيان الملك. وهذه قلَّما نجد فيها تأثيراً لتعاليم الاساقفة ونفوذ النصرانيَّة

الجواب على هذا الاعتراض انَّ «ب.ن» قد خُيِّل له انَّ المراد بنفوذ الدين المسيحي في القانون الروماني ان يُملي الاساقفة على الملوك الاصلاحات الواجبة على مقتضى تعليم الانجيل وهذا ما لم يخطر على بال احد وان ظهر تأثير هذه التعاليم في عدَّة شرائع رومانيَّة. وانما المفهوم بذلك سعي الكنيسة بتلطيف تلك الشرائع القظَّة الجارية عند الرومان الوثنيين وبنهضة الآداب العموميَّة وازالة ما في القانون من المعاملات الجائرة كما فعل قسطنطين بنفي المجالدات بين المصارعين وابطال الحكم على المجرمين بمبارزة الوحوش وغير ذلك مما اشرنا اليه من تحرير العبيد ومعاملتهم كبشر واخوة بعد ان كانوا يُعتبرون كأدوات محضة ولا شيء (Pro nullo habetur) وتخويلهم حقوق الابوَّة والدين (١

وهذا البحث من اوسع الابحاث وادقّها ولذلك طلبنا من احد الاساتذة الاختصاصيين بان يكتب لنا في ذلك مقالة ويبيّن ما للكنيسة من الفضل في تأثيرها على الحقوق الرومانيَّة. وان شاء الله ننشرها قريباً

البحث الثاني

في موقف الكنيسة ازاء الشعوب البرابرة

انَّ ما قالهُ ب.ن عن موقف الكنيسة ازاء البرابرة يُشعر بنسبته اليها الفشل والضعف عن تأديب هؤلاء الشعوب وردّ غارتهم عن العالم الروماني

(١ اطلب: Accarias : *Précis de Droit Romain*, I, 99 seq. et P. F. Girard : *Manuel élémentaire de Droit Romain*, 5, ed., p. 99

لكنهُ قد فات الكاتب المذكور انَّ الكنيسة اوقفت ما امكنها تلك الامم الزاحفة على العالم الروماني. فكيف نسي ما اصطنعهُ بابا رومية القديس لاون الكبير لمَّا اوقف ذلك الجبَّار العاتي اعني اتيلا وكيف تصدَّى لهم اساقفة متمدّدون فخلَّصوا بسطوتهم المدن وسكانها من غارات اولئك البرابرة ثمَّ كيف تمكَّن ارباب الكنيسة من تنصيرهم كما فعل القديس رامبجيوس بملك الفرنج كلوفيس

ولا يقولنَّ انَّ اولئك البرابرة لم تحسُن نصرانيَّتهم بل كان دينهم سطحيًّا

كلَّا فانَّا ننظر بين هؤلاء المتنصِّرين رجالًا لا يُحصى عددهم شرَّفوا الدين والوطن بفضائلهم واعمالهم الخطيرة. ولكن هَبْ انهُ بقي بينهم آثار وثنيَّة وخرافات أفلا يعلم المعترض انَّ التنصُّر على كمال تأثيرهِ لا يتمّ بزمن قليل ريثما يدخل الدين المسيحي في القلوب ويوطِّنها لممارسة اعمال البرّ والصلاح. او لسنا نرى حتى الآن بين الشعوب المتمدّنة آثارًا من الخرافات رغمًا عن غيرة ارباب الكنيسة. أو نسي «ب. ن» ما يصفهُ لنا المسلمون في كتبهم عن خرافات قومهم ؟

ثمَّ يجب على الكاتب ان يعلم انَّ البدع المضادَّة للكنيسة قامت في وجه رسلها فاجتذبت كثيرًا من أمم اولئك البرابرة اليها لا سيما البدعة الاريوسيَّة التي استولت على بلاد عديدة وطوائف شتى كالقوط والفيسيقوط والفندال في اسبانية وايطالية وشمالي افريقية. فلا عجب ان لم تستطع الكنيسة ان تُنفذ فيها الروح المسيحي الَّا بعد كسر شوكة الاريوسيَّة. امَّا سقوط العالم الروماني فسببهُ تحامل كلّ تلك الامم عليه من جهات شتى فأنهت قواهُ وافرغت خزائنهُ. فلا تثريب على الكنيسة بسقوطهِ

البحث الثالث

التمدُّن الاسلامي والتمدُّن الغربي

ليس اضعف من زعم الكاتب ب. ن (ص ١٣٠) من «انَّ القبائل المتنصِّرة بقيت غارقة في عاداتها الوثنيَّة الاولى ... الى ان اختلط الغرب بالشرق واقتبس الاوَّل من الثاني مدنيَّة العلوم والقوانين في العراق والاندلس اوَّلًا وسوريًا ومصر ثانيًا وآخرًا» لانهُ من المعلوم انَّ العرب لمَّا هجموا على الشرق الروماني وممالك بوزنطية كانوا والتمدُّن على طرفي نقيض فامتزجوا بالشعوب النصرانيَّة حيثما حلُّوا واخذوا من

النصارى كافّة علومهم وفنونهم الجميلة فهذا فنّ البناء والهندسة تعلّموهُ من اليونان فاستعانوا بالروم لبناء جوامعهم كالجامع الاقصى في القدس وجامع بني امية وجامع المدينة وغيرها. وقد روى البلاذري في فتوح البلدان كيف اشرفت المدينة على الغرق في عهد عثمان فاتى بمهندسين من الروم لتصريف المياه

وما يقال عن الابنية هو اصحّ واوضح في العلوم العقليّة كالفلسفة والرياضيّات التي اخذها المسلمون عن نصارى الشام والعراق ومصر والاندلس كما ذكرهُ كتبة المسلمين نفسهم ورواهُ المشرق في ردّهِ على التير (راجع المقالة المنونة العلوم العربيّة وحريق مكتبة الاسكندريّة في المشرق ١٤ [١٩١١]: ٢٩٩ و٣٨٨). ولمّا ابتدأ اختلاط الشرق بالغرب كان الغرب حاصلًا على تمدّن عظيم تشهد عليهِ آثارهُ الباقية. فانّ اديرة الرهبان كانت معاهد للعلوم فهم الذين صانوا آثار الآداب الرومانيّة واليونانيّة بتعديد نسخها وهم الذين انشأوا تلك الجمعيّات الدينيّة التي شيّدت الكتائس القوطيّة الفخيمة. ولم يحتج الفلاسفة المدرسيّون الى العرب لنشر العلوم اليونانيّة بل كثيرًا ما ردّوا على مزاعم العرب كابن رشد والغزّالي

وقد اخذنا العجب من كاتب مقالة العلوم الاجتماعيّة الذي استشهد بتاريخ سوريّة للمثلّث الرحمات السيّد يوسف الدبس وخلط بين ما جاء هناك عن بعض اعمال يوستنيانس وبين ما رواهُ عن تنظيمهِ للشرائع الرومانيّة فانّ صاحب تاريخ سوريا المفضال لم يقل كلمةً في تحطئة تنظيم يوستنيانوس للشرائع الرومانيّة وانّما ذكر فقط بعض معايب حياتهِ فكيف استجاز «ب. ن» ان ينسب الى صاحب تاريخ سوريّة ما لم يَقُلهُ ؟

اما ما نقلهُ عن تاريخ موسهيم (ص ١٣١) الذي دعاهُ «رئيس مدرسة كولنجن الكليّة الامريكانيّة» (كذا!!) فانّهُ لا يجديهِ فتيلًا لانّ الكل يعرفون انّ هذا الكاتب من متعصّبي البروتستانت على الكنيسة الكاثوليكيّة والناكرين لاعمالها الاثيرة. فان كان ب. ن لا يعرف غيرهُ عالمًا فالاجدر بهِ ان لا ينزل في ميدان ليس هو من فرسانهِ

هذه عجالة كتبناها على جناح السرعة وان اراد ب. ن اعتبناها بمقالات غيرها تميط النقاب عن كل شبهاتهِ